أثر
الأسبوعية Atar
العدد (7)، الخميس، 23 نوفمبر 2023م

حربٌ على سيقان الضأن

مجدي الجزولي

اللوحة من أعمال الفنان: عُبادة جابر

ينهمر الرصاص وتتساقط القذائف في مدن دارفور وأريافها، وتتقطع أسباب الحياة بطالبيها: البشر. نشأت بذلك ثغرة عظيمة في سوق إقليمي للمواشي واللحوم. ولم تتأخر تشاد، أو بالأصح الاستثمارات الأجنبية في تشاد، في اهتبال فرصتها. تهيّأ رأس المال العابر للقارات في تشاد خلال الشهور الأخيرة لسد هذه الثغرة، بالتوسع في صادرها من المواشي واللحوم. ونشأت لهذا الغرض شركة «لحم تشاد»، بمال من البنك الفرنسي BPI France، وهو هيئة حكومية للاستثمار تأسست في العام 2012، وأعمال شركة ARISE المتخصصة في بناء وتشغيل المناطق الصناعية. وهذه من جهتها شراكة بين الهيئة الإفريقية للتمويل (هيئة متعددة الأطراف نشأت في العام 2007 بموجب اتفاقية بين 40 دولة إفريقية، ليس من بينها السودان، وأغلب رأسمالها من القطاع الخاص)، والصندوق الإفريقي للتحول والتصنيع، وهو محفظة استثمارية خاصة تأسست في العام 2021 مقرها أبو ظبي، وليس صندوقاً وليس إفريقيّاً.

حمى الاستثمارات الإماراتية في إفريقيا شديدة الحرارة، بل نارية، صارت بموجبها الإمارات العربية المتحدة رابع أكبر مستثمر في القارة خلال الأعوام العشرة الأخيرة، بعد الصين والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية، بحجم استثمارات تجاوز 60 مليار دولار. يسيطر أفراد من العائلات المالكة الإماراتية ضمن هذا التكالب على 12 ميناء حول القارة، وذلك بآلة شركات حكومية أبرزها «دبي بي وورلد»، أو «موانئ دبي» سابقاً، وهي شركة فرع من «دبي العالمية»، المِدْيَة الاستثمارية لحكومة دبي، أثرى الإمارات السبع. شغل مشروع ميناء أبو عمامة على ساحل البحر الأحمر بتكلفة قدرها 6 مليارات دولار موقعاً استراتيجياً في هذه الخطة، لكن الله ما أراد!

للمقارنة، وقّعت «دبي بي وورلد» في أكتوبر 2022 عقداً بكلفة قدرها 250 مليون دولار لتطوير ميناء دار السلام في تنزانيا، مقابل احتكار تشغيل ثلثي الميناء لمدة 30 عاماً قادماً. ظل العقد مخفياً عن الرأي العام التنزاني حتى يوليو الماضي، وعندما بلغ خبره مسامع هيئات ومنظمات أهلية واجهته بمعارضة شديدة بحجة أنه يهدد «السيادة الوطنية». تقدم ممثلون عن هذه الهيئات بعريضة إلى المحكمة العليا في تنزانيا تقدح

في قانونية الاتفاق، ورفضت المحكمة الدعوى في 10 أغسطس الماضي. بل اعتقلت السلطات التنزانية مؤقتاً العشرات من المعارضين بتهمة تنظيم تظاهرات غير مُصرّح بها. صرح ممثلون لشركة «دبي بي وورلد» من ناحيتهم بأن الشركة تتوقع مضاعفة دخل الميناء ثلاث مرات خلال العقد القادم.

أما سلسلة الموانئ الخاضعة كلياً أو جزئياً لسلطان «دبي بي وورلد»، على السواحل الإفريقية، بحسب تقرير صدر حديثاً (يونيو 2023)، عن «المعهد الإيطالي للدراسات السياسية الدولية»؛ فتمتد عبر سلسلة تحيط بالقارة (ملحق 1) وتشمل عدة موانئ مصرية، منها بورسعيد والعريش وشرم الشيخ، وميناء الجزائر، ثم موانئ جيبوتي وبربرا (الصومال)، ومابوتو (موزمبيق)، وكوماتيوبورت (جنوب إفريقيا)، وبونت نوير (الكنغو برازفيل)، وكامسار (غينيا)، ودكار (السنغال).

ماذا تريد الإمارات العربية المتحدة بكل هذه الموانئ؟

ثمة تفسير ربحي، فشركة «دبي بي وورلد» هي اليوم إحدى أعظم شركات تشغيل الموانئ في العالم. ووحدة قياس هذا النفوذ بالدرجة الأولى هي عدد الوحدات القياسية التي تُعالجها في العام، وحساب هذه الوحدة هو الكونتينر 20 قدماً. تشغل «دبي بي وورلد» بهذا القياس الموقع الخامس في العالم بعدد 46،1 مليون كونتينر في العام 2022، مرت 14 مليون كونتينر منها عبر ميناء جبل علي، مركز هذه الشبكة الربحية. بلغت مداخيل «دبي بي وورلد» في العام 2022 مقدار 17.3 مليار دولار، بنسبة زيادة قدرها 59٪ عن العام 2021، هذا بالمقارنة مع 5.6 مليار دولار في العام 2018. منشأ هذه المداخيل الطائلة جهود 100 ألف عامل من 180 بلداً. يُعدُّ ميناء جبل علي الأضخم والأحدث في الشرق الأوسط وفي قائمة العشرة الأوائل على مستوى العالم. مسعى الإمارات العربية المتحدة، أو بالأحرى أُسَرُها الحاكمة، أن يتأبَّدَ هذا الموقع بزيادة فاعلية هذا التشبيك وتعضيده، إمبراطورية لا تغرب شمسها، يشغل جبل علي فيها موقع المفرزة لحركة التجارة المتصاعدة بين آسيا وإفريقيا، مفرزة عالية التقنية والتأمين تطرح الأرباح مدراراً.

ما علاقة هذه الشبكة الربحية بالضأن في بادية كردفان ودارفور؟

تمتدُّ هذه الشبكة التجارية دقيقة الشعيرات، لتبلغ مثل بادية الضعين وسوقها، ما كان يسمى في الأدب الاستعماري الداخل الإفريقي. ومصادر أرباحها «عرق العامل» البنغلاديشي وضأن «تَرْيَان» في بادية كردفان ودارفور، لحمه من ماء وكلأ يسعاه

راعٍ «شنَّق» الكلاشنكوف على كتفه، على أمل أن يُدرك في يوم ما مراقي «التاتشر أم ثنائي»، ومُهمَّته في حساب هذه الدورة الربحية أن يبلّغ هذا الضأن الأسواق الخليجية بثمن زهيد يمكّن العامل البنغلاديشي من أداء عمله على أكمل وجه. ناقش هذه القضية مؤخراً بروفيسور مارك دفيلد في مجلة «عرض الاقتصاد السياسي الإفريقي» (1 نوفمبر 2023)، بالنظر إلى مصاب الدولة المركزية في كل من السودان والصومال. كان مراقبو السودان يخشون عليه من الصومَلة، واليوم صار التفاضل بين الصومَلة والسودنة تمايزَ ذوقٍ ونكهة.

جوهر المسألة عند بروفيسور دفيلد هو تصاعد واردات الخليج العربي من الماشية، من حوالي ربع مليار دولار في العام 1979 إلى حوالي 1.4 مليار دولار في العام 2020، في مقابل نمو عدد السكان في الخليج العربي، من حوالي 15 مليون نسمة في العام 1979 إلى 57 مليون نسمة في العام 2020، ولسد هذه الحاجة زادت صادرات الصومال والسودان من الماشية إلى الخليج العربي من 40 مليون دولار في العام 1979 إلى حوالي 550 مليون دولار في العام 2020 (ملحق 2). بلغت هذه الصادرات قمتها في العام 2017، حيث صدر البلدان مجتمعَيْن 9.5 مليون رأس من الماشية الحية إلى بلاد الخليج، متفوّقَيْن بذلك على كل أستراليا وأوروبا، بما يساوي 80٪ من واردات الخليج العربي من الماشية، وضعف صادر كل من فرنسا وكندا وأستراليا من الماشية، وثلاثتهم أكبر مصدري الماشية في العالم. وبذلك نشأت علاقة اعتمادية بين نمو المدن الخليجية وصادر الماشية من السودان والصومال، فمدن الخليج صارت تعتمد في 90٪ من حاجتها للبروتين الحيواني على سلسلة توريد تبدأ في مثل مراعي كردفان ودارفور.

عناصر هذه السلسلة، سوى البشر، هي الماء والكلأ والشمس الحرّاقة مُركّزة في هيئة لحم حيواني. يمثل هذا اللحم الحي صيغة تخزين رخيصة للبروتين سهلة النقل نسبيّاً. إذا كان البترول هو صيغة الطاقة المُركّزة التي تُغذّي التصنيع، فاللحم الرخيص هو صيغة الطاقة المركزة التي تغذي العمل البشري الضروري للتحول الحضري الصناعي. بذلك نشأت علاقة شرطية بين الرعي المسلح في بادية كردفان ودارفور والنمو الحضري في بلدان الخليج العربي الفقيرة إلى الغذاء. وهذا ربما منشأ الاقتصاد الحربي الذي هو الساعة، بعبارة أخرى جبهة دموية عظيمة تمتدُّ عبر القرن الإفريقي حتى الداخل، لما يُسمّيه المرحوم كارل ماركس «التراكم البدائي»، وما تجارة الماشية بين القرن الإفريقي والخليج العربي سوى رباط الدم هذا، شرط تغذية النمو السكاني في بلدان الخليج العربي من 10 ملايين نسمة في سبعينيات القرن الماضي إلى 60 مليون نسمة اليوم، وجلّه

تكدس حضري للعمالة المُستورَدة التي تقوم عليها مدن إمبراطورية مثل دبي. من جهة الماشية، كانت أغلب الزيادة في صادرات السودان والصومال في الضأن حتى بلغت في منتصف العشرية الأولى من الألفية الجديدة 70٪ من جملة صادر الماشية (ملحق 3).

تتحقق هذه الوحدة الموضوعية بين نمو العمل في الخليج العربي ونمو صادر الضأن من الصومال والسودان بازدواج الاستهلاك والتدمير، زيادة الاستهلاك في مدن الخليج وتدمير كل ما يعرقل رعي الضأن التجاري تحت الشمس الحرّاقة. والعلة أن التوسع اللازم في رعي الضأن يفرض بالضرورة إخلاء الأرض من مجتمعات بحالها تشغلها بالزراعة، الأمر الذي لا يستقيم سوى بتفجير علاقات التبادل المعيشية بين مجتمعات رعوية وأخرى زراعية، وإخضاعها لمنطق الغلبة. وهذه المعادلة هي بدرجة من الدرجات الجبر الاقتصادي للصراع الحربي في دارفور أول الأمر واليوم، على كل نطاق الجغرافية اللازمة لإنتاج وتصدير الماشية في السودان، من جهات الضعين حتى منافذ الصادر على البحر الأحمر حيث أبو عمامة: تسليح الرعي التجاري وإخلاء الأرض من سكانها بالقوة المسلحة.

بهذا المنظور، فإن مأساة القتل والتهجير والإفقار المنظم التي وقعت على مجتمعات الفور والمساليت في دارفور، صورة كربونية لما أصاب البانتو في جنوب الصومال، ضحايا «التراكم البدائي» في جبهة دموية للتجريف الرأسمالي. اعتمد كل من الفور والمساليت والبانتو على الزراعة المعيشية وإنتاج الخضر والفاكهة في جيوب لما ينفذ إليها السوق بسلطان، ولم ترتبط قطعانهم المتواضعة من الضأن بسوق تمتدُّ حلقاته الربحية حتى دبي السعيدة. والتناقض بين طرفي الصراع، صومال ضد بانتو، وعرب وضد زرقة، هو في باطنه الجبري تناقض بين نمطين متكاملين للإنتاج الفلاحي في استجابة لطلب متزايد، وشهوة لا تنضب، للحم الرخيص في مدن البترول في الخليج العربي ما بعد 1973. فتح هذا التناقض هوة ربحية لا قرار لها لتجار الماشية وأربابهم المسلحين والوسطاء والمسيطرين على موانئ البحر الأحمر.

قُوم نحرق هالمدينة

انعقد رباط الدولة الاستعمارية، دولة 56 في عبارة فلاسفة الدعم السريع، على تأمين مياه النيل وإنتاج المحاصيل النقدية من حوض زراعي واسع يشمل الجزيرة وسهل القضارف. وجهاز الدولة ومنجزاته بما في ذلك مدينته الأولى الخرطوم ترجمة لمطلوبات هذا النمط الزراعي واجتماعه، تعليم كادره وثقافته وخدماته. قام هذا

الجهاز على تناقض شنق به نفسه، فمن جهة استخلاص الضرائب لتشجيع نمو سوق عمل مأجور على قاعدة الزراعة المروية، ومن أخرى الإهمال الاستراتيجي لأقاليم الاقتصاد المعيشي تحت سلطان الإدارة الأهلية (الحكم غير المباشر)، بغرض الحفاظ على سعر قوة العمل منخفضاً.

لم يعد هذا النمط الإنتاجي بحلول منتصف الثمانينيات، لأسباب ليس هذا محل شرحها، قادراً على تأمين مطلوبات جهاز الدولة ومدنه والاجتماع الذي نشأ فيها، إلا بخفة يد مسلحة. كانت ترجمة هذا التحول التوسع الحربي في الزراعة الآلية، عبر حزام زاحف جنوباً وتأمين قوة عمل رخيصة من جمهور الخاسرين في الصراع الحربي، عبر خط التماسّ بين شمال السودان وجنوبه. يسّرت فوائض صادر البترول بين 1999 و2005 الانتقال العسير من الدولة الزراعية الراعية إلى الدولة المستثمرة، التي تبيع بـ«الساهلة» شمالاً ويميناً، للحفاظ على حياة المدينة. أما في الريف المُهمل، فكانت ترجمة هذا التحول تفجير العلاقة التكاملية بين نمطي الإنتاجي الفلاحي، الزراعة المعيشية والرعي المعيشي، بقوة السوق والسلاح، تفجيراً انتهى إلى حرب اجتماعية، هدف كل طرف فيها الفوز بقسط أكبر من السوق. تحولت الزراعة المعيشية المقصورة على موسم إلى زراعة نقدية طوال السنة، وتحول الرعي المعيشي المتوازن بدورات إنتاج الماشية الكبيرة (الإبل والأبقار) الطويلة، إلى رعي نقديٍّ التركيزُ فيه على الماشية ذات دورة الإنتاج القصيرة (الضأن والأغنام). و«الجنجويد» بهذا المعنى هو الشوكة المسلحة للرعي النقدي، والدعم السريع الذي نشأ عنه، نموذج وحدة رأس المال والتجارة والسلاح، الذي اكتشف بخلاف المواشي أقاليم ربحية أخرى لا يحتاج استخلاصها إلى آلة جهاز الدولة القديم: قوة العمل المُحارِبة، والذَّهب، وسلع التهريب (السلاح والعربات) والمخدرات.

خَصْمُ رأسِ المال التجاري المسلح، كمثل الدعم السريع، في مسعاه لتوفير صادرات رخيصة لسوق نهم، هو الدولة المُوحَّدة الطامعة في أن تحمي نمطاً إنتاجياً زراعياً بحدود معلومة، ومخارج للصادر، ونظام جمركي وضريبي لتأمين مصروفات جهاز الدولة وضروريات الاجتماع، بما في ذلك الصحة والتعليم والإسكان، وكل ما تتطلّبه عملية إعادة إنتاج قوى العمل نفسها. تمثل الدولة القطرية – دولة 56 في عبارة فلاسفة الدعم السريع – عائقاً يحول دون الاستخلاص الفعَّال للأرباح، الذي ينشده مثل الدعم السريع، فتك متك. والحياة الحضرية التي نشأت عن هذا الاقتصاد الزراعي، حتى صارت عبئاً عليه عمارٌ لا ضرورة له استأثر به فلولٌ لا نصيب لهم في شبكة الأرباح على سيقان الضأن.

ملحق (1): الاستثمارات البحرية والتجارية الإماراتية في أفريقيا، الموانئ و«الموانئ الجافة» والمنصات اللوجستية

1. الموانئ التي تديرها الشركات والمناطق الاقتصادية في دولة الإمارات العربية المتحدة:

الميناء	البلد	المالك	نوع ومدى الاتفاقية	سعة الميناء
الجزائر	الجزائر	موانئ دبي العالمية	امتياز لمدة 30 عامًا منذ عام 2008	755.600 حاوية مكافئة لعشرين قدمًا سنويًا. تضاعفت سعة الميناء في عام 2021.
السخنة	مصر، منطقة جنوب السويس	موانئ دبي العالمية	امتياز منذ عام 2009	1.75 مليون حاوية مكافئة سنويًا اعتبارًا من عام 2021.
سفاجا	مصر، منطقة البحر الأحمر	مجموعة موانئ أبوظبي	امتياز لمدة 30 عامًا منذ عام 2023.	450.000 حاوية مكافئة.
جيبوتي	جيبوتي	موانئ دبي العالمية	امتياز منذ عام 2006 لتطوير وبناء وتشغيل محطة حاويات دوراليه (افتتحت في عام 2009)، كمشروع مشترك مع شركة موانئ جيبوتي.	
بربرة	صوماليالاند	موانئ دبي العالمية	امتياز منذ عام 2017 لتشغيل الميناء، مركز بحري ولوجستي وصناعي متكامل جديد في القرن الأفريقي، مع افتتاح منطقة اقتصادية خاصة في عام 2023 وربطها بأديس أبابا (إثيوبيا).	500.000 حاوية مكافئة في السنة.
بوساسو (المعروف أيضًا باسم بندر قاسم)	بونتلاند	موانئ دبي العالمية	حصلت شركة بي آند أو بورتس، وهي شركة تابعة لموانئ دبي العالمية، على امتياز لمدة 30 عامًا منذ عام 2017 لإدارة الميناء وتطويره. في عام 2022، وقعت موانئ دبي العالمية اتفاقية بناء مع الحكومة الإقليمية لبونتلاند لتوسيع وتحديث الميناء للتعامل مع سفن الحاويات، مع المزيد من مكالمات الموانئ المباشرة من دبي (دون إعادة الشحن). وهي تستخدم أساسا لتصدير الثروة الحيوانية نحو الشرق الأوسط.	وحدات حاوية مكافئة غير متوفرة، على الرغم من أنها ستظل أصغر من ميناء بربرة.

كيغالي	رواندا	موانئ دبي العالمية	امتياز لمدة 25 عامًا منذ عام 2016، تم افتتاح منصة لوجستية في عام 2019 لربط رواندا بالدول المجاورة والوصول إلى موانئ مومباسا (كينيا) ودار السلام (تنزانيا)، والتي تم توسيعها الآن لاستضافة المستودعات لتوزيع السلع.	50.000 حاوية مكافئة.
مابوتو	موزمبيق	موانئ دبي العالمية	امتياز لإدارة محطة الحاويات منذ عام 2006، وبناء البنية التحتية لتوزيع البضائع عن طريق البر أو السكك الحديدية	300.000 حاوية مكافئة في عام 2020.
كوماتيبورت	جنوب أفريقيا	موانئ دبي العالمية	امتياز منذ عام 2019، تقع على بعد 100 كم من الساحل، على اتصال بميناء مابوتو في موزمبيق. وهو مستودع حاويات داخلي أو ميناء جاف («ميناء بدون سفن»، الأول في المنطقة).	
لواندا	أنغولا	موانئ دبي العالمية	امتياز لمدة 20 عامًا منذ عام 2021.	700.000 حاوية مكافئة سنويًا يتم الوصول إليها من خلال تدريب وتطوير الموظفين الحاليين.
بوانت نوار	جمهورية الكونغو، برازافيل	موانئ أبوظبي	وقعت مجموعة موانئ أبوظبي اتفاقية مبدئية، (تمهيداً للامتياز) في عام 2023 لتطوير وتشغيل وإدارة ميناء نيومول.	
كامسار	غينيا	مجموعة موانئ أبوظبي	امتياز منذ عام 2016، بعد مذكرة تفاهم عام 2013 لاستكشاف الفرص في موانئ التعدين.	2000 حاوية مكافئة في السنة.
داكار	السنغال	موانئ دبي العالمية	امتياز لمدة 25 عامًا منذ عام 2008	900.000 حاوية مكافئة في السنة.

2. الموانئ والمناطق الاقتصادية الجديدة قيد الإنشاء/التي سيتم إنشاؤها:

الميناء	البلد	المالك	نوع ومدى الاتفاقية	سعة الميناء
ندايان	السنغال	موانئ دبي العالمية	اتفاقية امتياز موقعة في عام 2020 لبناء وتشغيل ميناء المياه العميقة، قيد الإنشاء منذ عام 2022. يقع على بعد 50 كم من داكار ميناء آخر تديره موانئ دبي العالمية ومقرها الإمارات العربية المتحدة. الهدف من ميناء ندايان إنشاء مركز وبوابة إلى غرب أفريقيا، مع تضمين منطقة اقتصادية خاصة.	سعة الميناء: 1.200.000 مليون حاوية مكافئة متوقعة سنويًا.
باتانا	جمهورية الكونغو الديمقراطية	موانئ دبي العالمية	امتياز مدته 30 عامًا تم توقيعه في عام 2021 (مشروع مشترك بين موانئ دبي العالمية، 70٪ وحكومة جمهورية الكونغو الديمقراطية، 30٪)، قيد الإنشاء. والهدف منه هو بناء ميناء عميق على شاطئ المحيط الأطلسي.	سعة الميناء: 450.000 حاوية مكافئة في السنة متوقعة.
أبو عمامة	السودان	اتحاد شركات تقوده مجموعة موانئ أبوظبي، وشركة إنفكتوس للاستثمار ومقرها دبي (وهي شركة تابعة لمجموعة دال للصناعات ومقرها السودان).	اتفاقية أولية موقعة في عام 2022 بين اتحاد الشركات والسودان. ستقوم مجموعة موانئ أبوظبي بتشغيل الميناء الذي لم يبدأ تشييده بعد. الهدف من الميناء هو ربط منطقة أبو حمد الزراعية في ولاية نهر النيل السودانية (200 كم شمال بورتسودان)؛ ومن المخطط إنشاء مطار ومنطقة زراعية ومنطقة الاقتصادية جزءًا من الاستثمار.	(سعة الميناء المتوقعة غير متوفرة).

3. الصفقات الإماراتية على الموانئ والبنى التحتية البحرية:

موريشيوس	في عام 2019، وقعت مجموعة موانئ أبوظبي وهيئة موانئ موريشيوس اتفاقية لتعزيز البنية التحتية للموانئ وصناعة الرحلات البحرية.
موريتانيا	في عام 2021، مول صندوق أبوظبي للتنمية مشروع تحديث ميناء تانيت لصيد الأسماك في نواكشوط. يشمل المشروع التجديد بالإضافة إلى بناء مصنع ثلج لتخزين التبريد.
تنزانيا	في عام 2022، وقعت موانئ دبي العالمية وهيئة موانئ تنزانيا اتفاقية أولية لتمويل المشاريع التي تهدف إلى تحسين كفاءة موانئ تنزانيا.
كينيا	في عام 2022، عملت موانئ دبي العالمية على إبرام صفقة مع الحكومة الكينية للاستثمار في أربعة موانئ: مومباسا ونيفاشا وكيسومو ولامو (كما أنشأت منطقة اقتصادية خاصة). في أوائل عام 2023، أعربت موانئ دبي العالمية عن اهتمامها بالاستثمار في منطقة دونغو كوندو الاقتصادية الخاصة في مومباسا، وهي تجري دراسة جدوى.

ملحق (2): تقارير التجارة الخارجية، بنك السودان المركزي (2012 – 2022)

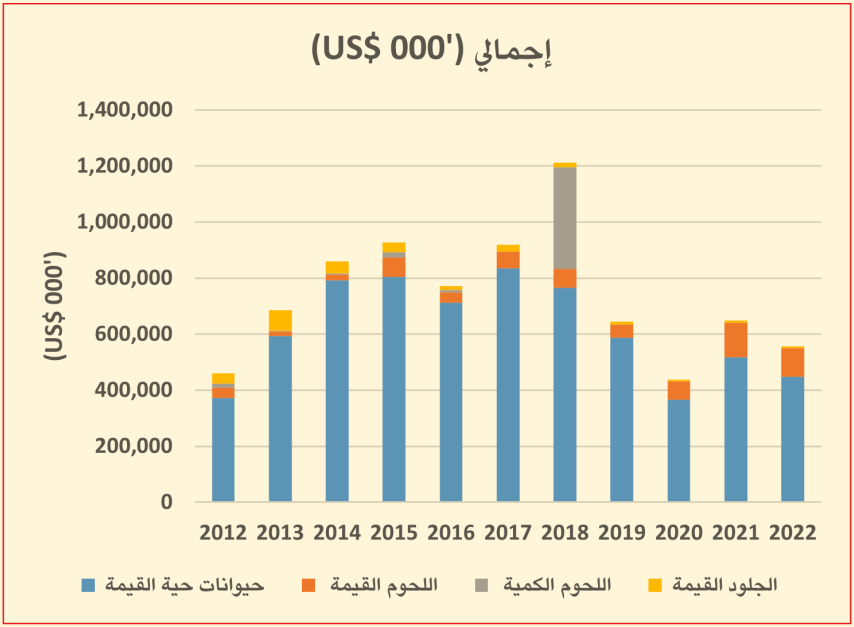

ملحق (3): صادرات السودان من اللحوم والحيوانات الحية (2022)

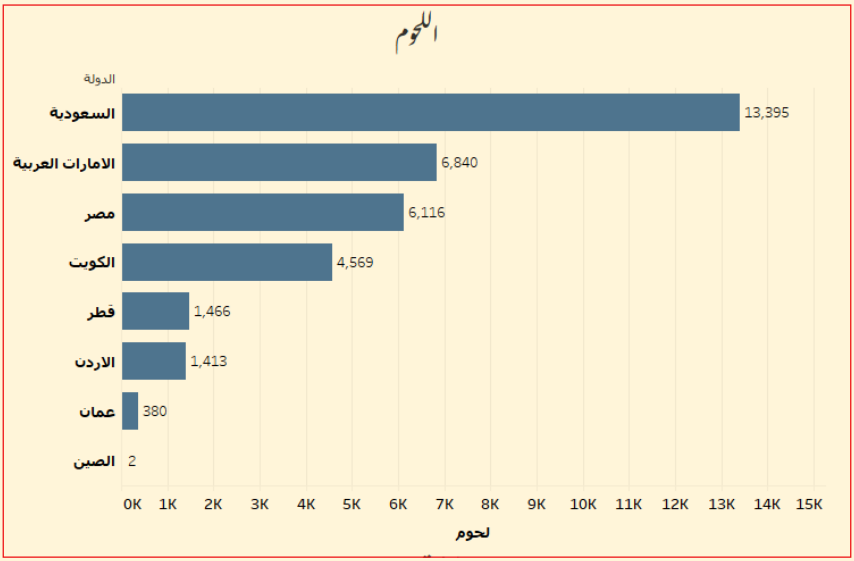

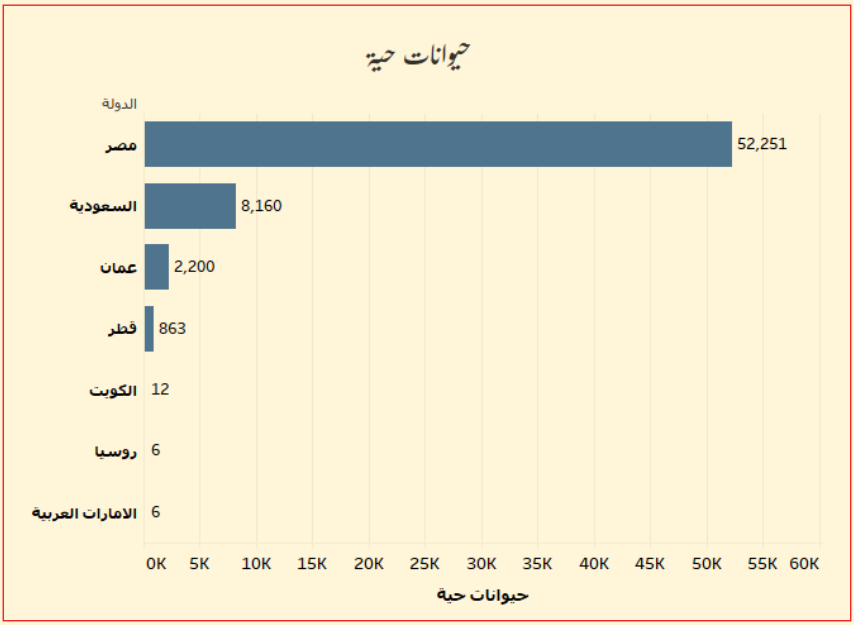

أثر
Atar
السودان ومحيطه

مجلة تصدر أسبوعياً عن
مركز **سودان فاكتس** للصحافة

FACTSD
FACTS CENTER FOR JOURNALISM

نعمل على السودان،
من كل مكان

لاستلام نسخة (pdf) من المجلة أسبوعياً

على البريد الإلكتروني،
الرجاء مراسلتنا مرة واحدة على:
atar@sudanfacts.org

على WhatsApp أو Signal،
الرجاء إرسال رسالة تحوي كلمة «أتر» أو «Atar» في التطبيق على الرقم:
+254115438212

للانضمام إلى شبكة مراسلي أثَـر في السودان الرجاء مراسلتنا على:
correspondent@sudanfacts.org

@atarnetwork